

الفصل الخامس

السلام

عزز انتصار محمد (ﷺ) على قريش من وضعه في الجزيرة العربية، واستفاد خلال الشهور القليلة التالية من ذلك النصر، فأرسل فرقاً هجومية على القبائل التي تحالفت مع قريش في غزوة الأحزاب، على أمل تشديد الحصار الاقتصادي على قريش، والذي كان يدمر تجارتها، مع جذب بعض القوافل التجارية الشامية إلى المدينة. وجعل نجاحه المستمر كثيراً من العرب يتساءلون عن جدوى إيمانهم التقليدي. لقد كانوا أناساً عمليين، لا يهتمون بالفكر التجريدي قدر اهتمامهم بفعالية نظامهم الديني.

وبعد عودة الجيش المكي من المدينة، قال القائد خالد بن الوليد «كل رجل ذو عقل، يعرف الآن أن محمداً (ﷺ) لم يكن يكذب»:

قال الواقدي: لما انصرف عمرو بن العاص قال: قد علم كل ذى عقل أن محمداً لم يكذب: فقال عكرمة بن أبي جهل: أنت أحق الناس ألا يقول هذا. قال عمرو: لم؟ قال: لأنه نزل على شرف أبيك وقتل سيد قومك. ويقال: الذي تكلم به خالد بن الوليد، ولا ندري. لعلهما تكلما بذلك جميعاً. قال خالد بن الوليد: قد علم كل حليم أن محمداً لم يكذب قط. قال: أبو سفيان ابن حرب: إن أحق الناس ألا يقول هذا أنت قال: ولم؟ قال: نزل على شرف أبيك وقتل سيد قومك أبا جهل. [مغازي الواقدي: ٢/٤٩١] (١).

وحتى أكثر المتمسكين بالدين القديم بدءوا يوافقون على ذلك. وأسرت إحدى الهجمات على قافلة تجارية مكية، أبا العاص زوج زينب، والذي تخلى عن عائلته بعد

بدر بدلاً من أن يقبل الإسلام، أمر محمد (ﷺ) بإطلاق سراحه وإعادة تجارته له . وقد أسر كرم محمد (ﷺ) أبا العاص حتى أنه بعد أن سلم تجارته في مكة، هاجر إلى المدينة، وأعلن إسلامه، ومن ثم استعاد عائلته ثانياً، زينب وابنتها أمانة .

كانت ریح محمد (ﷺ) في صعود في الجزيرة العربية كلها، أما في المدينة، فكان العكس هو الصحيح . أصبح الصراع مسموماً أكثر من قبل، ولا يمر يوم إلا ويدس ابن أبى أنه لو ترأس يثرب، لما تعرضت للعداوة المميتة لأقوى مدينة في بلاد العرب . كان أعداء محمد (ﷺ) لا يهاجمونه علانية إلا نادراً، ولكنهم شنوا عليه حملة تشهير . كانت محاولته - المختلف عليها بين عرب عصره - لتحسين حال المرأة، بمثابة هدية لهم، لترويج الإشاعات الحقودة والمنحطة على زوجاته . أعلن بعضهم أنه سيتزوج من إحدى زوجاته بعد وفاته، وانطوى ذلك على تلميح باغتياله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِ مَا كَانَ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْتَسِينَ حَدِيثٌ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [سورة:

الأحزاب: ٥٣] (٢) .

سرت همسات بأنه أصبح عجوزاً لا يشبع زوجاته، وأنه مصاب بفتق في الخنصية (٣) .

وعندما كان الناس يتزاحمون داخل بيته لسؤاله أو الشكوى من أمر أو سؤال أمر، كاد بعضهم يهين زوجاته أمام عينيه، وكاد الأمر يفلت من السيطرة . في الليل، عندما يتلطف الجو، تنبعث الحياة في المدينة، ويخرج الناس إلى الطرقات، ويجتمعون للمسامرة، ولكن منذ حصار الأحزاب، أصبحت النساء تهاجم في الطرقات . وعندما كانت نساء النبي (ﷺ) تخرجن، كان المنافقون يتبعونهن ويضايقونهن بأبشع وأحط الأقوال، وعندما يواجهون بذلك يقولون لم نكن نعرفهن في ظلام الليل، وكنا نحسبهن بعض الإماء :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَرْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ

أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَارُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ [سورة الأحزاب: ٥٩ - ٦٠] (٤).

استهلكت أحداث السنوات الأخيرة محمداً (ﷺ) عاطفياً وبدنياً، وكان دائماً يعتمد عاطفياً على نسائه، الأمر الذي جعله عرضة للانتقاد، وعندما قرر أن يتخذ زوجة جديدة، بدأت الألسنة تلوّكه ثانياً (٥). كانت زينب بنت جحش قريبة دائماً من محمد (ﷺ)، فهي ابنة عمته، وهي أيضاً زوجة زيد، ابنه بالتبني.

لقد رتب محمد (ﷺ) زواج زينب بزيد، ولم تكن زينب متحمسة لزيد، فهو لم يكن جذاباً، وربما كانت مهتمة بمحمد (ﷺ) نفسه. زينب الآن في أواخر الثلاثينيات من عمرها، ولكنها ذات جمال أخاذ، وهي امرأة تقية، ماهرة في المشغولات الجلدية، وكانت تعطى ما تحصل عليه من مكسب للفقراء. ويبدو أن محمداً (ﷺ) رآها بعين جديدة وأحبها فجأة عندما ذهب بعد الظهر إلى منزل زيد ليتكلم معه، ولكن لم يكن زيد بمنزله. لم تكن زينب تنتظر أي زوار، فذهبت للباب بملابس المنزل الكاشفة، وعندما رآها محمد (ﷺ) حول وجهه عنها قائلاً «سبحان الله مغير قلوب الرجال» (*). بعد فترة قصيرة، تم طلاق زينب من زيد وزوجها بمحمد (ﷺ). لم يكن زواجها بزيد سعيداً، وكان زيد سعيداً بطلاقها. صدمت القصة بعض متقدي محمد (ﷺ) من الغربيين الذين اعتادوا أكثر على الأبطال المسيحيين الزاهدين، ولكن يبدو أن المصادر الإسلامية لم تجد ما يسيء في فحولة نبيها، كذلك لم تنزعج من أن يكون لنبيها أكثر من أربع زوجات. لماذا لا يعطى الله لثبته بعض الميزات؟ ما اعتبره معارضوه في المدينة فاضحاً هو زواجه من زوجة ابنه بالتبني زيد، فالابن بالتبني هو كالابن، حتى أنهم اتهموا محمداً (ﷺ) بزنا المحارم. أيد الوحي محمداً (ﷺ) بأن الله أراد هذا الزواج لأنه ليس من الخطأ الزواج من زوجة الابن بالتبني:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى

(*) هذه الرواية عند علماء الحديث معلولة بثلاث علل تجعلها غير صحيحة، وقد انفرد بها ابن سعد، ومع هذا لا يكاد يخلو كتاب لمستشرق - عن النبي محمد (ﷺ) - منها.

النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴿ [سورة الأحزاب: ٣٦ - ٤٠] (٦).

كان محمد (ﷺ) لدى عائشة عندما جاءه الوحي بذلك، فقالت عائشة - الجانحة للغيرة دائماً - بأسلوب لاذع: «ما أسرع ربك في تلبية هোক» (*). وكالعادة، انعكس التوتر بين نساء النبي (ﷺ) على المجتمع كله: زواج محمد (ﷺ) من إحدى قريباته، سوف يمد المجال السياسي لعائلة النبي (ﷺ)، داعياً لقضية أهل البيت.

بسبب الفضيحة، أصر محمد (ﷺ) أن يحضر كل المجتمع حفل الزفاف. امتلاً الفناء بالضيوف، وكثير منهم معادون له، ولم يكن الجو العام ساراً. انتهى الحفل وبدأ الناس في الانصراف، ولكن بقيت مجموعة صغيرة، سعيدة بالزفاف، ولكن غير مقدره أن عليها الانصراف لترك الزوجين الجديدين. انصرف محمد (ﷺ) وذهب لزوجاته على أمل أن يتتبه الضيوف الغافلون لذلك فينصرفوا. سألته عائشة بحدة: كيف وجدت صاحبك الجديدة؟ عاد محمد (ﷺ) بعد ذلك لزينب، ولكن بعد أن صرف أنس بن مالك الضيوف.

عندما دخل محمد (ﷺ) الغرفة، مد ستارة بينه وبين أنس، مرتلاً تنزيلاً جديداً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾ [سورة الأحزاب: ٥٣] (٧).

استمر التنزيل، ناهياً نساء النبي (ﷺ) عن الزواج من أحد بعد موته، وأمرهن أن

(*) كذلك جاء عن عائشة أنها قالت: لو كان محمد (ﷺ) خافياً شيئاً من الوحي لأخفى تلك الآية. البخاري في كتاب التوحيد، حديث (٧٤٢٠).

يدنين عليهن من جلابيبيهن - هن ونساء المؤمنين - حتى لا يعرفن ولا يؤذین من أحد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينٍ لِحَدِيثِ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُوجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنْ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يَصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ [سورة الأحزاب : ٥٣ - ٥٩] (٨) .

أصبحت آيات الحجاب مثار خلاف شديد (٩) ، وستستخدم بعد ثلاثة أجيال من بعد وفاة النبي (ﷺ) لتبرير تحجب كل النساء* ، وفصلهن في أجزاء خاصة من المنزل . ولكن يجب رؤية الآيات في سياقها . نزلت الآيات في السورة ٣٣ [سورة الأحزاب] ، والتي تتكلم عن أحداث الأحزاب ، وما يمثله رعبها من خلفية للسورة . ولم توجه تلك الأوامر لكل النساء المسلمات ولكن لزوجات محمد (ﷺ) . لقد جلبتها تهديدات أعداء محمد (ﷺ) الضمنية لحياته ، وتجاوزاتهم وتعدياتهم شبه اليومية على زوجاته وعلى سكنه . لقد أجبر المناخ المسموم للمدينة محمداً (ﷺ) على تغيير ترتيباته الشخصية . لم يعد سكنه مجالاً عاماً ، وعلى من يريد التحدث إلى

(*) من يقولون بوجوب ارتداء النساء الحجاب ، وهم التيار الرئيسي من علماء المسلمين ، يؤسسون ذلك على آية وحديث : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٣﴾ [سورة النور : ٣١] . وحديث عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رفاق ، فأعرض عنها رسول الله ﷺ ، وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه . أبو داود في : اللباس حديث (٤١٠٤) .

زوجاته أن يخاطبهن من وراء حجاب، وكلمة حجاب أصلها حجب. مثلت الستارة المضروبة كحجاب نوعاً من الحماية عن «الحرم»، مثل أستار الكعبة. في أيام التعرض للهجوم، غالباً ما ترمز أجساد النساء لمكمن الخطر على الأمة، وفي أيامنا الحالية، اكتسب الحجاب أهمية جديدة، فيما يبدو لحماية الأمة من تهديد الغرب.

لم يكن محمد (ﷺ) يريد أن يفصل حياته الخاصة عن حياته العامة. استمر في اصطحاب زوجاته في حملاته العسكرية، ولكن سيقين في الخيام، واستمرت بقية النساء المسلمات في التحرك بحرية في كل مكان. لم يكن المقصود من الحجاب فصل الجنسين، وفي واقع الأمر، عندما نزلت آية الحجاب، تم الفصل بين رجلين، محمد (ﷺ) وأنس، وكانت لفصل الزوجين محمد (ﷺ) وزينب، أو أى من زوجاته، في منزله عن المجتمع العام. وكان نزول آية الحجاب نصراً لعمر الذي كان يحث النبي (ﷺ) على حجب زوجاته لفترة ما، وكان ذلك حلاً سطحياً لحد ما لمشكلة معقدة.

كان محمد (ﷺ) يريد تغيير سلوك الناس، وكان فرض ذلك الحاجز الخارجي حلاً وسطاً، لأنه لا يستلزم من المسلمين ممارسة الضبط الذاتي لأفعالهم، وإنما جاء الحل موافقة لعمر نظراً للأزمة التي كانت تمزق المدينة.

ولكن الوضع لم يتحسن، فبعد أسابيع قليلة من آيات الحجاب، شن أعداء محمد (ﷺ) هجوماً شريراً على عائشة لتدمير محمد (ﷺ) وكادت تُقسّم الأمة (١٠). مثلت عائشة هدفاً سهلاً، فهي المفضلة لدى محمد (ﷺ)، وجميلة، مفعمة بالحوية، فخورة بوضعها، وغيورة، ومفوهة، وليست كاملة من حب الذات، وبلا شك فقد صنعت عداوات كثيرة. اختار محمد (ﷺ) عائشة لمصاحبتة في حملة ضد أحد حلفاء قريش والذي عسكر بجنوده قريباً من المدينة بشكل يمثل تهديداً لها. وطبقاً لجواسيس محمد (ﷺ)، كانت قريش وراء ذلك، حيث أفنعت حليفها بمهاجمة المدينة. نجحت الحملة: اعترضهم المسلمون عند عين المريسيع على شاطئ البحر الأحمر، فاستولوا على مائتي ناقه، وخمسائة من الغنم، ومائتي من نسائهم، وكانت جويرية بنت الحارث، ابنة رئيس القبيلة بينهم. توقف قلب عائشة فور أن رأت جويرية، فقد كانت جميلة، وحين بدأت المفاوضات إثر الهجوم، عرض محمد (ﷺ) الزواج منها لعقد تحالف مع أبيها.

عسكر المسلمون في المريسيع ثلاثة أيام، وبرغم النتائج الإيجابية للغزو، فالتوتر الذي يغلى بين المهاجرين والأنصار فجر حادثة خطيرة. فبينما كانوا يسقون جمالهم،

نشبت شجار بين أجيرين، أحدهما لعمر بن الخطاب والثاني من حلفاء الخزرج، وسرعان ما نادى الأول على المهاجرين والثاني على الأنصار، الذين احتشدوا، وبخلاف ما أمر القرآن، بدءوا يتقاتلون. سمع عمر وبعض صحابة محمد (ﷺ) الآخرين بذلك، فهرعوا ليقفوا القتال، مما أثار غضب ابن أبي:

قال ابن إسحاق: «فبينما رسول الله (ﷺ) على ذلك الماء، وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له جهجاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسان ابن وبر الجهني، حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيد ابن أرقم، غلام حدث، فقال: أوقد فعلوها؟ قد نأفرونا وكأثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، وأما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم! أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله (ﷺ) وذلك عند فراغ رسول الله (ﷺ) من عدوه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله (ﷺ): «كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا ولكن أذن بالرحيل». وذلك في ساعة لم يكن رسول الله (ﷺ) يرتحل فيها، فارتحل الناس. [السيرة النبوية: ص ٦٧٠ - ٦٧١] (١١).

وفي إحدى مرات التوقف، تسللت عائشة لتقضي حاجتها، وعندما عادت، اكتشفت أنها فقدت قلادتها. وكانت القلادة هدية الزفاف من أمها، ولم تكن تتحمل فقدها، فذهبت تبحث عنها، وأثناء ذلك، حمل الناس هودجها على الجمل وساروا به ظناً أنها داخله. عادت عائشة فوجدت القافلة تحركت، فجلست مكانها منتظرة أن يكتشف أحد غيابها فيعودوا ليأخذوها. ظهر صفوان بن المعطل، الذي كان قد تأخر

لبعض شئونه، فوضعها على ظهر جملة، ثم سار حتى لحقا بالقافلة. بدأت الإشاعات عن علاقة عائشة بصفوان، لاكتها ألسن المعارضين لمحمد (ﷺ). علق ابن أبي بابتهاج قائلاً إنه من الطبيعي أن تميل عائشة لصفوان، فهو أصغر وأوسم من زوجها. زلزلت الفضيحة المدينة، وبدأت القصة كما لو كانت حقيقية، حتى أن بعض المهاجرين بدءوا في تصديقها، بل إن أبا بكر بدأ يشك في صحة القصة. والأخطر من ذلك، أن محمداً (ﷺ) نفسه بدأ يداخله الشك في براءة عائشة، وتلك علامة على تأكل ثقته في تلك الفترة الصعبة، ولأيام قليلة، بدأ مضطرباً وغير واثق، لقد كانت حاجته لعائشة كبيرة، وكان يخشى فقدانها، ولذلك بدأ مضطرباً ومترددًا. لم ينزل عليه وحى، ولأول مرة منذ بداية النبوة، يصمت عنه الوحي طويلاً. استمر ابن أبي في استغلال الموقف، واشتعلت الأحقاد القبلية القديمة عندما هددت الخزرج، قبيلة ابن أبي، بمحاربة الأوس الذين طالبوا بقتل من يسعر الفتنة. كان الوضع خطيراً حتى أن محمداً (ﷺ) اضطر لجمع رؤساء المدينة ليطلب منهم دعمهم إذا وجد أنه من الضروري اتخاذ إجراء ضد ابن أبي الذي يهاجم عائلته.

في النهاية، ذهب محمد (ﷺ) إلى عائشة، التي ذهبت إلى منزل أبيها فلبثت يومين تبكي، بعد أن عرفت ما يقال عنها، لا يغمض لها جفن ولا يرقأ لها دمع، حتى دخل عليها زوجها ليسألها قائلاً: «أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه». وقفت عائشة التي لم تبلغ العشرين من عمرها رابطة الجأش وجف دمعها فوراً، وحملت في زوجها قائلة في شرف عظيم:

لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة، تصدقوني. والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾، ثم تحولت ورفدت لتنام في مرضها صامتة ثانياً (١٢).

أيقن محمد (ﷺ) الذي يعرف عائشة جيداً أنها بريئة، وسرعان ما أخذته الغاشية التي تسبق الوحي، ووضع أبو بكر وسادة تحت رأسه، بينما بقي هو وزوجته مترقبين - في حالة خوف - مما يأتي به الوحي .

ثم أفاق النبي (ﷺ) وهو يضحك قائلاً: «يا عائشة، أما الله فقد برأك». فقالت لها أمها: قومي إليه، فأجابتها عائشة بعند: لا أقوم إليه ولا أشكره، ولا أشكركما، فقد استمعتما إلى قذفي ولم تنكراه، لن أقوم إلا لله، ولن أشكر سواه (*).

تقبل محمد (ﷺ) توبيخ عائشة لهم في تواضع، وذهب ليخبر المسلمين المنتظرين الآيات الجديدة:

(*) قال ابن إسحاق: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ .

قالت: وكان النساء إذا ذك إنما يأكلن العلق لم يهجهن اللحم، وكنت إذا رحل لي يعيرى جلست في هودجى، ثم يأتى القوم الذين يرحلون لي ويحملونى، فأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير، فينطلقون به. قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجه قافلاً، حتى إذا كان قريباً من المدينة فنزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتى، وفى عنقى عقد لى، فيه جزع ظفار، فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى، فلم أجده، وقد أخذ الناس فى الرحيل، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم خلافاً، الذين كانوا يرحلون لى البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أنى فيه، ثم أخذوا برأس البعير، فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب. قد انطلق الناس.

قالت: فتلففت بجلبابى، ثم اضطجعت فى مكانى، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى. قالت: فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأى سوادى، فأقبل حتى وقف على، وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رأى قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، طعينة رسول الله ﷺ! وأنا متلففة فى ثيابى، قال: ما خلفك برحمتك الله؟ قالت: فما كلمته، ثم قرب البعير، فقال: اركبى، واستأخر عنى. قالت: فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً، يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل =

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة النور: ١١] (١٤).

= الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتعج العسكر ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولا يبلغني من ذلك شيء. وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ، وإلى أبوي لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أنني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني، ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكاوي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل علي وعندى أُمى تمرضنى - قال ابن هشام: وهى أم رومان، واسمها زينب بنت عبد دهمان، أحد بنى فراس بن غنم بن مالك بن كنانة - قال: «كيف تيكم؟» لا يزيد على ذلك.

قالت: حتى وجدت في نفسى، فقلت: يا رسول الله - حين رأيت ما رأيت من جفائه لي -: لو أذنت لي، فانتقلت إلى أُمى فمرضتني؟ قال: «لا عليك». قالت: فانتقلت إلى أُمى، ولا أعلم لى بشيء مما كان، حتى نفقت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قوماً عربياً، لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التى نتخذها الأعاجم، نعافها ونكرها، إنما كنا نذهب في فسح المدينة، إنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف، وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن تيم. خالة أبى بكر الصديق ﷺ، قالت: فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت في مرطها، فقالت: تعس مسطح، ومسطح لقب واسمه عوف، قالت: قلت: بشس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرًا، قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟ قالت: قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذى كان من قول أهل الإفك، قالت: قلت: أو قد كان هذا؟ قالت: نعم والله فقد كان. قالت: فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى، ورجعت، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى، قالت: وقلت لأُمى: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً! قالت: أى بنية، خفضى عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.

قالت: وقد قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذونى فى أهلى، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل، والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى».

قالت: وكان كبير ذلك عند عبد الله بن أبى ابن سلول فى رجال من الخزرج مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن من نسائه امرأة تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله - تعالى - بدنيها. فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت، تضادنى لأختها، فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله، إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج، فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب =

لقد تم تجنب مأساة شخصية وسياسية، ولكن بقيت الشكوك، لقد أظهرت الحادثة كيف كان محمد (ﷺ) سهل المثال. فهل كان - كما يزعم ابن أبي - ناراً مستهلكة؟.

ولكن في ذى القعدة (٦ هـ / مارس ٦٢٨ م)، أعلن محمد (ﷺ) بياناً مروعاً، أثبت فيما بعد أنه ممارسة غير عادية لعبقريته النبوية^(١٥). يبدو أنه لم تكن لديه خطة

= أعناقهم، قالت: فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً، فقال: كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا، فقال أسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: وتثار الأوس، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر. ونزل رسول الله ﷺ، فدخل على. قالت: فدعا علي بن أبي طالب [رضوان الله عليه]، وأسامة بن زيد، فاستشارهما، فأما أسامة فأتى علي خيراً، ثم قال: يا رسول الله، لا نعلم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل، وأما علي فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية، فإنها ستصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها، قالت: فقام إليها علي بن أبي طالب، فضربها ضرباً شديداً، ويقول: اصدقني رسول الله ﷺ، فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً، إلا أني كنت أعجن عجيني، فأمرها أن تحفظه، فنتام عنه، فتأتى الشاة فتأكله.

قالت: ثم دخل علي رسول الله ﷺ، وعندى أبواي، وعندى امرأة من الأنصار، وأنا أبكي، وهي تبكي معي، فجلس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقى الله، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده: فوالله ما هو إلا إن قال لي ذلك، فقلص دمي، حتى ما أحس منه شيئاً، وانتظرت أبوي أن يجييا عنى رسول الله ﷺ، فلم يتكلما. قالت: وإيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي، وأصغر شأناً من أن ينزل الله في قرآناً يقرأ به في المساجد ويصلى به، ولكني قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئاً يكذب به الله عنى، لما يعلم من براءتي، أو يخبر خيراً، فأما قرآن ينزل في، فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك. قالت: فلما لم أر أبوي يتكلمان، قالت: قلت لهما: ألا تحييان رسول الله ﷺ؟ قالت: فقالا: والله ما ندرى بماذا نجيبه، قالت: والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام، قالت: فلما أن استعجما على استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً. والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أنى منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني. قالت: ثم التمسيت اسم يعقوب فما أذكره، فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» [يوسف: ١٨] قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجى بشوبه ووضع له وسادة من آدم تحت رأسه فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فرغت ولا باليت، وقد عرفت أنى بريئة، وأن الله - عز وجل - غير ظالمى، وأما أبواي، فالذى نفس عائشة بيده، ما سرى عن رسول الله ﷺ، حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس، قالت: ثم سرى عن رسول الله ﷺ، فجلس، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه، ويقول: «أبشرى يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك»، قالت: قلت: بحمد الله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثانة، وحسان بن ثابت، وحمزة =

محددة في البداية، وإنما فقط بصيص من بصيرة داخلية. أخبر المسلمين أنه رأى في المنام أنه وأصحابه في المسجد الحرام، محرمين، ومعهم مفاتيح الكعبة، مملوئين سكينه وثقة بالنصر. وفي اليوم التالي، أعلن لأصحابه نيته للاعتمار، ودعاهم لصحبته. ويمكنك أن تتصور مدى خليط الخوف والتعجب وعدم اليقين والبهجة الذي غمر المسلمين من تلك الدعوة المهولة. أعلن محمد (ﷺ) بوضوح أنها ليست حملة عسكرية، فلن يحملوا السلاح خلال العمرة، وليس في نيته انتهاك الحرم، حيث يمتنع القتال فيه. اعترض عمر قائلًا إنهم بدون سلاح سوف يساقون إلى الذبح، ولكن محمدًا (ﷺ) كان صلبًا في ذلك: «لن نحمل السلاح، نحن ذاهبون للعمرة، وليس لغير ذلك». المعتمرون لا يحملون سلاحًا، إلا ما قد يضطرون إليه ليحموا أنفسهم في الطريق، فإذا دخلوا الحرم، تركوا - حتى ذلك السلاح الخفيف - خارجه. كان محمد (ﷺ) يريد أن يذهب إلى عرين عدوه بدون سلاح.

لم يخاطر بتلك العمرة أحد من حلفاء محمد (ﷺ) من البدو، وخرج معه حوالى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، حتى ابن أبي قحافة وأبو بكر الصديق (رضي الله عنهما) وسمح لامرأتين من الأنصار شهدتا العقبة، كذلك اصطحب محمد (ﷺ) أم سلمة.

بدأ المسلمون العمرة، ومعهم جمالهم التي سيضحون بها. وفي أولى محطات الاستراحة، قلده محمد (ﷺ) أحد الجمال فلائد العمرة التقليدية، ثم بدأ التلبية «لبيك اللهم لبيك». انتشرت أنباء تلك العمرة الجريئة، إن لم تكن المتهورة، من قبيلة إلى أخرى، وتابع البدو أخبارها عن كذب من المدينة شمالاً إلى مكة جنوباً. كان محمد (ﷺ) يعلم أنه يضع قريشاً في موقف شديد الصعوبة. فكل عربي له الحق في الحج والعمرة، وإذا منعت قريش، حامى الكعبة، أكثر من ألف معتمر يتبعون تقاليد العمرة، فإنها بذلك تكون قد تنكرت لواجبها. كذلك سيكون إذلالاً لا يمكن قبوله لو

= بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة، فضربوا حدهم. [السيرة النبوية: ص ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٦٧٧] (١٣).

دخل محمد (ﷺ) مكة . سرعان ما قرر كبار قريش منع محمد (ﷺ) من دخول مكة ، وبأى ثمن . وفى اجتماع طارئ، قرر القادة إرسال خالد بن الوليد فى مائتى فارس لمهاجمة أولئك المعتمرين غير المسلحين . وعندما علم محمد (ﷺ) بذلك الأمر الخطير، ألم به الكرب على قومه قريش . لقد أعمتهم الكراهية العقيمة التى أثارتها الحروب، حتى أنهم أصبحوا مستعدين لانتهاك تقاليد الحرم، والتى تقوم حياتهم عليها: «ما جدوى كل ذلك العناد؟ يا حسرة على قريش، لقد أنهكتهم الحرب وأضرت بهم . ما ضرهم لو خلوا بينى وبين العرب؟»:

قال ابن إسحاق: فقال رسول الله (ﷺ): «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرین، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة». [السيرة النبوية: ص ٦٨٢] (١٦).

اتخذت العمرة مساراً مختلفاً عما تخيله محمد (ﷺ)، وربما عما توقعه من أن يسمح له بدخول مكة، ومن أن تسنح له الفرصة ليشرح مبادئ الإسلام لقريش فى كنف السلام الذى تفرضه العمرة. ولكنه لا يستطيع التراجع الآن، وقال: «إن هم أبوا إلا القتال، فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، أو لينفذن الله أمره».

أصبحت مهمته الأولى أن يصل بالمعتمرين داخل حدود الحرم. وجد المسلمون دليلاً من قبيلة أسلم، قادهم لذلك فى طريق وعر ملتف. وفور دخولهم الحرم، ذكّر محمد (ﷺ) المسلمين أنهم فى عمرة، يجب ألا تطغى عليهم مشاعر الحنين للوطن، ولا الزهو بالانتصار، عليهم أن يتوبوا عن أوزارهم، وعليهم أن يتجهوا الآن إلى بشر الحديبية وتترك جمالهم آثارها حتى يعرف خالد بن الوليد أين هم.

وعندما وصلوا الحديبية، بركت ناقة محمد (ﷺ) ورفضت التحرك:

قال ابن إسحاق: فأمر رسول الله (ﷺ) الناس فقال: «اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض» فى طريق تخرجهم على ثنية المزار، مهبط الحديبية من أسفل مكة، قال: فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قفرة الجيش قد

خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلى قريش، وخرج رسول الله (ﷺ)، حتى إذا سلك في ثنية المزار بركت ناقته، فقالت الناس: خلأت الناقة، قال: «ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها». [السيرة النبوية، ابن إسحاق - ط دار الكتب العلمية: ص ٦٨٢] (١٧).

لم يفكر محمد (ﷺ) مطلقاً في القضاء على قريش، ولكن أراد إصلاحها، اقتناعاً منه بأن استمرارها على حالها الاجتماعي القديم سوف يدمرها. ورأت قريش أن ذلك الاعتمار يبلغ مرتبة إعلان الحرب عليها، ولكن محمداً (ﷺ) أراد أن يسجد أمام الحرم المكي امتثالاً لأوامر الله، وقد انصاعت ناقة رسول الله (ﷺ) كما انصاع الفيل [أي فيل أبرهة الأشرم] من قبل لأمر الله. لم تحقق الحروب شيئاً يبقى سوى الفظائع التي ارتكبتها الجانبان. ما هذا الاعتمار إلا هجوماً بالسلام، وليس غزواً. ولكن القليل من المسلمين أخذوا ذلك الكلام من محمد (ﷺ) على محمل الجد، فقد أسرتهم الأحداث وتوقعوا مفاجئات، ربما معجزة تُخرج القرشيين من مكة ويدخلوها ظافرين! ولكن بدلاً من ذلك، أمرهم محمد (ﷺ) بهدوء أن يروا جمالهم ويجلسوا بجانبها. وما تلا ذلك هو الجلوس في طاعة انتظاراً للإذن بدخول مكة، وممتنعين عن أى عنف. كان محمد (ﷺ) يصور أنه يراعى تقاليد الحرم أكثر من قريش، والتي كانت تعد لقتاله، بينما هو يريد العمرة، مسالماً بدون سلاح في الأرض الحرام.

وصلت رسالة محمد (ﷺ) للبدو، فيها هو رئيس خزاعة الذى يزور مكة، ركب إلى الحديبية ليرى ما يحدث، فروعه أن يرى أولئك المعتمرين - بدون سلاح - يُمنعون من دخول مكة:

قال ابن إسحاق: فلما اطمأن رسول الله (ﷺ) أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي، فى رجال من خزاعة، فكلّمه وسأله: ما الذى جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، ومعظماً لحرمته، ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً هذا البيت. فاتهموهم

وجبهوهم، وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة
أبدأ، ولا تحدث بذلك عنا العرب. [السيرة النبوية: ص ٦٨٣] (١٨).

كان يقود قريشاً في تلك الأحداث ضد محمد (ﷺ)، سهيل بن عمرو، الوثني
التقى الذي كان محمد (ﷺ) يأمل في دخوله الإسلام، وأبناء بعض عتاة أعداء
الإسلام: عكرمة بن أبي جهل، فكان يعارض أى حل وسط، وصفوان بن أمية، الذي
قتل أبوه في بدر، ومن الجدير بالملاحظة، أن أبا سفيان، صاحب الذكاء الخارق، لم
يكن له دور كبير في الأحداث، ربما لأنه أدرك أن محمداً (ﷺ) قد جعل قريشاً في
وضع المنتهك للتقاليد، وأنه لم يعد بوسع قريش أن تستمر في التعامل معه بالتحديات
التقليدية للجاهلية.

حاول المكيون قتل المعتمرين، ولكن فوت عليهم محمد (ﷺ) الفرصة بأن دخل
منطقة الحرم. وحاول المكيون بعد ذلك شق صفوف المسلمين بدعوة ابن أبي لآداء
العمرة، ولكن لدهشة الجميع، رفض ابن أبي أن يعتمر قبل محمد (ﷺ)، رغم أنه
سوف يصطدم به ثانياً في المستقبل، إلا أنه كان مسلماً مطيعاً في الحديبية. أخيراً، أفلح
سهيل وصفوان في إقناع عكرمة بالمفاوضات، وأرسلوا أحد حلفائهم من البدو، الحليس
سيد الأحابيش، وهو رجل شديد التدين، وعندما رآه محمد (ﷺ) مقبلاً عليهم،
أمرهم بإرسال البدن أمامه، فتأثر الحليس بذلك وعاد إلى مكة بدون أن يسأل محمداً
(ﷺ) عن قدومه، وقال لقريش: قد رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن
يصدوا [عن العمرة]. غضب صفوان قائلاً كيف يجرؤ الحليس ذلك البدوي الجاهل على
إعطائهم أوامر! كان ذلك خطأ خطيراً:

قال ابن إسحاق: إن الحليس غضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش، والله ما
على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم. أبيضد عن بيت الله من جاء
معظماً له! والذي نفس الحليس بيده، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو
لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. [السيرة النبوية: ص ٦٨٤] (١٩).

اعتذر صفوان على الفور، وطلب من الحليس أن يبقى معهم حتى يجدوا حلاً
يرضى الجميع.

أرسلت قريش مبعوثها الثاني، عروة بن مسعود الثقفي، وهو حليف هام لمكة. وضع عروة أصبعه على نقطة ضعف محمد (ﷺ) فقال له: أي محمد، أرايت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إنى لا أرى وجوهاً وأرى أوباشاً من الناس خليقاً أن يفرؤا ويدعوك.

قال ابن إسحاق: جلس عروة بن مسعود الثقفي بين يدي رسول الله (ﷺ) وقال: «يا محمد، أجمعت أوشاب الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟!» [السيرة النبوية: ص ٢٨٤] (٢٠).

عرف محمد (ﷺ) أنه برغم ذلك العرض للقوة والوحدة، فلديه عدد قليل جداً من الحلفاء الذين يُعتمد عليهم، فالبدو الذين حالفوه، والذين رفضوا مصاحبته فى العمرة، التزامهم بالإسلام سطحى، ووضعه فى المدينة غير مأمون بشكل يبعث على اليأس، وعلم أن بعضاً من أصحابه المقربين لا يفهمون ما هو بصدده. كيف يناطح قريشاً - قبيلته الأصلية - بتلك الأخلاط المتنافرة؟ كانت قريش - بالتباين - متحدة بقوة، ومسلحة حتى أسنانها. أخبره عروة أنه حتى النساء والأطفال، أقسموا أن يمنعوا محمداً (ﷺ) من دخول مكة. ولكن، ورغماً عنه، تأثر عروة بإخلاص المسلمين لمحمد (ﷺ) فى الأزمة، وأخبر قريشاً - أنه على الأقل فى وقتهم الحاضر - أن محمداً (ﷺ) عنده أدوات الفوز، وأن عليهم إبرام نوع من الاتفاق معه (*).

قرر محمد (ﷺ) أن يرسل سفيراً من جانبه لمكة. فأرسل أمية بن خراش الخزاعى، ولكنها عرقت جملة، وكادت تقتله لولا تدخل الحليس، ثم طلب محمد (ﷺ) من عمر أن يذهب، ولكن أجابه عمر بأنه ليس هناك أحد من قبيلته فى مكة يحميه من قريش، وفى النهاية أرسل عثمان بن عفان. استمعت قريش لعثمان، ولكن لم تقتنع، وسمحت له بأداء العمرة، ولكنه أبى، فقررت قريش إبقاءه رهينة، ولكنها أرسلت للمسلمين أن عثمان قتل.

(*) قال عروة لقريش بعد لقائه مع محمد (ﷺ): أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشى، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، وقد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها. [الرحيق المختوم، طبعة دار الحديث ٢٠٠٤م، ص ٢٩٧].

كانت تلك لحظة رهيبة. بدا أن الحملة أشعلت ناراً غير محسوبة. وفي هذا الجو المشحون، دخل محمد (ﷺ) في غاشيته، ولكن لم تأت رسالة من الله، وكان عليه أن يجد حلاً بنفسه، فأمعن الفكر في العوامل التحتية للأحداث المخيفة الحالة، كما كان يفعل دائماً، حتى يعرف ما الذى يجرى في حقيقة الأمر. أخيراً، سأل المسلمين أن يبايعوه، فأقسموا على ذلك تحت الشجرة فيما أسموه «بيعة الرضوان، أو بيعة الشجرة». اختلفت المصادر التاريخية في البيعة، وربما تكون رواية الواقدي أكثرها إقناعاً. يقول الواقدي: إن المسلمين بايعوا محمداً (ﷺ) على أن يطيعوا ما فى نفسه فى هذه الأزمة:

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله (ﷺ)، قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا تبرح حتى نناجز القوم»، فدعا رسول الله (ﷺ) الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله (ﷺ) على الموت، وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله (ﷺ) لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفر. فبايع رسول الله (ﷺ) الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها، إلا الجند بن قيس، أخو بنى سلمة، فكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته. قد ضباً إليها، يستر بها من الناس. ثم أتى رسول الله (ﷺ) أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل. [السيرة النبوية: ص ٦٨٦] (٢١).

لم يكن محمد (ﷺ) قادراً على أن يأمر بالطاعة المطلقة له، ولكن خبر قتل عثمان هزه بشدة، حتى أن ابن أبي المنافقين كانوا مستعدين للمبايعة. لقد كان محمد (ﷺ) مصمماً - فى أعماق غريزته - أن يتخذ مساراً، علم أن الكثيرين سيجدون أنه لا يمكن التسامح بخصوصه، ولذلك أراد أن يضمن ولاءهم مقدماً. بعد أن بايع الجميع، بدأت الأمور تتحسن، فأولاً جاء الخبر السار بأن عثمان على قيد الحياة، وثانياً، قدم سهيل بن عمرو موفداً من قريش، وكان محمد (ﷺ) دائم الاحترام له، فأدرك أن قريشاً تريد التفاوض، وتفاءل باسمه فقال: «قد سهل لكم أمركم».

لقد كان ذلك إنجازاً في حد ذاته، فأخيراً، أجزر محمد (ﷺ) قريشاً على أن تأخذه على محمل الجد، ولاحت فرصة حقيقية لحل سلمى. تفاوض محمد (ﷺ) مع سهيل لمدة طويلة ولكن البنود التي اتفقا عليها أفزعت الكثير من أصحابه! أولاً: سيرجع المعتمرون بدون أداء المراسم هذا العام، ويعودون العام المقبل لذلك. ثانياً: تعقد هدنة بين مكة والمدينة لمدة عشر سنوات، يعيد فيها محمد (ﷺ) إلى قريش كل من يدخل في الإسلام ويفر منها إليه ضد رغبة وليه، ولكن لن تعيد قريش لمحمد (ﷺ) من يلجأ إليها من المسلمين. ثالثاً: تتحلل قبائل البدو من تحالفاتها القديمة، وتختار من جديد من تريد التحالف معه، المدينة أم مكة.

رسخ القرآن أنه من أجل إحلال السلام، على المسلمين أن يقبلوا جنوح عدوهم للسلام:

﴿وَأَنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١)

[سورة الأنفال: ٦١] (٢٢).

ولكن وجد كثير من المعتمرين تلك الشروط غير مشرفة. وتعنى المعاهدة أن المسلمين لن يستطيعوا الهجوم على قوافل مكة التجارية. لماذا يتخلى محمد (ﷺ) عن الحصار الاقتصادي على قريش، والذي بدأت أنيابه تعض؟ لماذا رضى بأن يعيد الداخلين في الإسلام إلى مكة، ولا يلزم مكة أن تعيد إليه من يخرج من المدينة؟ خلال السنوات الخمس الماضية، مات مسلمون، وفقد آخرون عائلاتهم وأصدقائهم، في سبيل الدين الجديد، والآن، يسلم محمد (ﷺ) كل شيء لقريش في هدوء، ويعود المسلمون خانعين إلى المدينة بدون عمرة؟ أهانت الهدنة كل عصب جاهلي في المسلمين:

قال ابن إسحاق: وقد كان أصحاب رسول الله (ﷺ) خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله (ﷺ) فلما رأوا مارأوا من الصلح، والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله (ﷺ) في نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون. [السيرة النبوية: ص ٦٨٧] (٢٣).

ظهرت بوادر التمرد، وتشقق التضامن الهش الذي جمع المعتمرين خلال تلك البعثة المحفوفة بالمخاطر، وظهرت فجأة بوضوح التصدعات التحتية التي تواجدت دائماً في الأمة. هب عمر إلى أبي بكر متسائلاً: ألسنا مسلمين وهم كفار؟ لماذا نعطي الدنيا في ديننا؟.

اضطرب أبو بكر ولكنه أجاب: برغم كل شيء، فهو يؤمن بمحمد (ﷺ):

قال ابن إسحاق: فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه، فإنني أشهد أنه رسول الله، قال عمر، وأنا أشهد أنه رسول الله. [السيرة النبوية: ص ٦٨٦] (٢٤).

قال عمر بعد ذلك إنه لو وجد مائة يتبعونه لا نشق عن محمد (ﷺ)، فهو لم يكن يشارك محمداً في رؤيته ذلك الوقت (٢٥*^X). كان عمر، مثل الكثير من الأنصار والمهاجرين الذين جاءوا من عشائر هامشية، أو حتى القرشيين المهمشين، لم يكن يريد فقط إصلاح النظام الاجتماعي لمكة، ولكن كان يريد إنهاء وإحلال نظام قرآني صرف مكانه.

كان عمر شجاعاً، مؤثراً للغير، وملتزماً بحماس شديد بمثاليات العدالة والمساواة، والتي غابت عن الحياة المكية، ولكنه لم يكن رجل الحلم، وكان لا يزال به بعض تهور الجاهلية. لم يفهم أن قيم الرقة واللاعنف هي أيضاً محورية في مثاليات الإسلام، وكان رجل عمل، وميالاً - مثل الجاهليين - إلى سيفه دون التمعن في الأمور (٢٦). احتار وارتبك مما صنعه محمد (ﷺ) في الحديبية.

بعد الانتصار على قريش في غزوة الأحزاب، كان المفترض أن تكون الخطوة التالية هي الضغط على قريش وتدميرها، ولكن ذلك لم يخطر مطلقاً على بال محمد (ﷺ). وذلك لأن انهيار مكة سيسبب كارثة لا يمكن تدارك آثارها على العرب، فهم متخلفون، ويحتاجون لعبقرية قريش التجارية لأقصى درجة. ولن تتدبر

(*) ما جاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «لولا أن الذي قبل ما كان يصلح الحديبية هو رسول الله ﷺ ما سمعت ولا أطعت، ولو أمر على أميراً ما سمعت له ولا أطعت». كذلك روى عنه أنه قال: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمته، حتى رجوت أن يكون خيراً، ولم نجد في المصادر العربية ما جاءت به المؤلفة.

قريش الإسلام طالما استمرت الحرب بينها وبين المسلمين ، مما يؤجج مشاعر الغضب والكراهية أكثر من أى شىء آخر . هدَفَ محمد (ﷺ) من التخلّى عن الحصار الاقتصادي إلى كسب قريش . لقد كان فيما أنجز في الحديبية أبعد نظراً من أى شخص آخر ، لم يكن يستسلم فى ضعف ، بل كان يعرف تماماً ما هو بصدد إنجازة . لقد كان يتحرك فى اتجاه حل سياسى ودينى لم يسبق له مثيل فى بلاد العرب ، ويعنى هذا أن عليه ألا يتبع المسارات التقليدية ؛ لأنها لن تذهب به بعيداً عن الواقع غير السعيد .

عندما نظر محمد (ﷺ) إلى الوجوه المذهولة واليائسة للمعتمرين ، كان عليه أن يخبرهم بوجوب قبولهم لشروط الهدنة لأن الله هو الذى أملاها . لم يرض ذلك القاعدة العامة للمعتمرين ، الذين توقعوا نوعاً من المعجزات ، وكان بشكل خاص مخيباً لآمال المنافقين الذين خرجوا سعيًا لمكاسب دنيوية . توتر الحال أكثر عندما عرف المسلمون نص المعاهدة . استدعى محمد (ﷺ) علياً ليكتب نص المعاهدة ، وعندما بدأ بالبسملة ، اعترض سهيل وأصر على كتابة باسمك اللهم ، وافق محمد (ﷺ) ، وأصابت المسلمين قشعريرة ، ولكن الأسوأ ما زال فى الطريق :

قال ابن إسحاق : ثم دعا رسول الله (ﷺ) على بن أبى طالب - رضوان الله عليه - فقال : اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، فقال رسول الله (ﷺ) : «اكتب باسمك اللهم» ، فكتبها ، ثم قال : «اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله (ﷺ) : «اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه» . [السيرة النبوية : ص ٦٨٧] (٢٧) .

وفى هذه اللحظات الفارقة ، ظهر فى المشهد فور توقيع اتفاقية الهدنة ، أبو جندل بن سهيل . لقد دخل أبو جندل فى الإسلام ، فحبسه سهيل فى بيت العائلة لمنعه من الهجرة إلى المدينة . نجح أبو جندل فى الهرب ، وجاء إلى الحديبية يرسف فى قيوده ليلحق بالمسلمين :

قال ابن إسحاق: فبينما رسول الله (ﷺ) يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، قد انقلت إلى رسول الله (ﷺ)، وقد كان أصحاب رسول الله (ﷺ) خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله (ﷺ)، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله (ﷺ) في نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتليبيه، ثم قال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتك هذا، قال: صدقت، فجعل يتره بتليبيه، ويجره ليرده إلى قریش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أورد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟!، فزاد ذلك الناس إلى ما بهم. [السيرة النبوية: ص ٦٨٧] (٢٨).

علق ابن إسحاق على ذلك بطريقة تقليدية تهون من المسألة قائلاً: «فزاد ذلك من غم الناس».

كان ذلك نهاية الصبر لدى عمر، فقد أسرع إلى النبي (ﷺ) غاضباً: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟
- بلى.

- ففيم نعطي الدنيا في ديننا؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟.

- يا بن الخطاب، إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصرى ولن يضيعنى أبداً.

- أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟.

- بلى. أفأخبرتكم أنا نأتية العام؟.

- لا.

- فإنك آتية ومطوف به (٢٩).

حمد عمر، ووافق على الهدنة على مضض وارتباك، ولكن استمر المسلمون على غضبهم، ومرت لحظات خطيرة بدا كما لو كانوا على وشك التمرد. أعلن محمد (ﷺ) أنه برغم أنهم لم يصلوا الكعبة، فعمرتهم تمت حيث هم في الحديبية، وعليهم أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا هديهم كما لو كانوا في مكة. جاء رد المسلمين في

صمتهم التام، وحملقتهم فيه في تجهم . رجع النبي (ﷺ) حزيناً إلى خيمته، ماذا يستطيع أن يفعل؟ وذكر لأم سلمة ما لقي من الناس . أشارت عليه بالأكل أحدًا، وإنما تنحر هديك، ثم تحلق رأسك، فاستمع لمشورتها وفعل ذلك، فاتبعه الناس، فنحروا وحلق بعضهم لبعض، حتى كادوا يقتلوا أنفسهم في حميتهم .

بدأت رحلة عودة المعتمرين في حالة نفسية أفضل، رغم بقايا الغضب، وبدأ النبي نفسه مبتعداً ومنشغلاً . وكان عمر خائفاً من أن تفسد مواجهته العنيفة للنبي (ﷺ) من صداقتهما بشكل لا يمكن إصلاحه، وتوقف قلبه وجلاً عندما استدعاه النبي (ﷺ)، ولكنه التقط أنفاسه عندما وجده متألِّفاً وكأنما أزيح عن كاهله حمل ثقيل، وأخبره محمد (ﷺ) بنزول سورة الفتح، أحب إليه مما طلعت عليه الشمس :

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [سورة الفتح: ١ - ٤] (٣٠) .

لقد أظهر المسلمون إيمانهم بشجاعتهم لمصاحبة النبي (ﷺ) لتلك العمرة الخطرة، وأظهروا إيمانهم وثقتهم بمحمد (ﷺ) ثانياً في بيعة الرضوان .

ميز انتصار الحديبية المسلمين عن قريش، التي أظهرت أنها ما زالت أسيرة تكبرها وغطرستها الجاهلية، والمقاومة المتصلبة لكل ما تراه يمس شرف تقاليدها وأسلوب حياتها . بل كانت قريش مستعدة لذبح المعتمرين المسالمين بدلاً من قبول «الإذلال» في سماحها بدخولهم الكعبة :

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الفتح: ٢٦] (٣١) .

ليس المسلمون رجال حرب، ولكن رجال حلم، تدعوهم روحهم للسلم واللين وتحمل الأذى، يتحالفون بذلك مع اليهود والمسيحيين، أهل الكتاب .

وبدلاً من أن يتخذوا مواقف عدائية، كما فعلت قريش في الحديبية، يتذلل المسلمون أمام الله في صلاتهم:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَتَتَفَرُونَ فِرَاضًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَمَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الفتح: ٢٩] (٣٢).

لم يكن العنف أو حب الذات، بل روح الرحمة ومكارم الأخلاق والسكينة هي التي تجعل الأمة تنمو، كما في الآية السابقة. لقد انتهت الحرب وحل زمان السلام المقدس.

في الواقع، استمر الصراع، ولكن مثلت الحديبية علامة تحول. ظهر الصلح في البداية غير مجز، ولكنه فتح أبواباً جديدة للإسلام. قبل الصلح، لم يكن هناك من يستطيع أن يناقش الإسلام بطريقة عقلانية، بمعزل من مناخ الحروب وما تثيره من كراهية وأحقاد. ولكن الآن، بعد الهدنة، يتقابل الرجال في سلام ويتحاورون ويتجادلون:

قال ابن إسحاق: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالاسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك الستين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. [السيرة النبوية: ص ٦٨٩] (٣٣).

ويبدو أن سورة النصر نزلت في ذلك الوقت:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [سورة الفتح: ١، ٣] (٣٤).

لن يكون هناك احتفالات مغرورة بالنصر، ولا صيحات انتقام، وسيكون العهد الجديد معطراً بروح العفو والعرفان، واستغفار النفس المسلمة اللوامة.

حسنت الحديبية من وضع الإسلام فى الجزيرة العربية، ولكن مثلها مثل إنجازات أخرى، قدمت القليل لوضع محمد (ﷺ) فى المدينة. استمر إحساس المعتمرين - من الأنصار والمهاجرين - بأنهم قد خدعوا، واستمر استيائهم. وتساءل المهاجرون: كيف يكتسبون أرزاقهم إذا توقفوا عن مهاجمة قوافل مكة التجارية؟ (*). أدرك محمد (ﷺ) أن عليه ألا يترك ذلك يتفاقم، وليس بمقدوره مهاجمة قريش، فوجه المسلمين شمالاً إلى خيبر المقر الجديد لقبيلة النضير اليهودية والتي تمثل خطراً عليهم، ويؤلب قاداتها قبائل الشمال ضد المسلمين. وبعد عودة محمد (ﷺ) من الحديبية بقليل، وجه جيشاً من ستمائة مقاتل إلى خيبر، وابتهجت قريش بسماعها الخبر، لتيقن أنها من هزيمة المسلمين. كانت خيبر محاطة بالصخور البركانية مثل المدينة، ويحميها سبعة حصون قوية، لذلك رآها الناس منيعة على المهاجرين. ولكن استطاع المسلمون الاستفادة من النزاع الداخلى الذى أذن بانهييار الروح القبلية فى خيبر، كما كان فى المدينة. كان لكل قبيلة فى خيبر حكم ذاتى، ووجدت القبائل أنه من المستحيل أن تتعاون بفعالية خلال الحصار، وزاد من مشكلتها أن قبيلة غطفان حليفها لم تظهر لمساعدتها، وبعد مرور شهر، طلب كبار اليهود السلام، وأصبحت خيبر بمثابة مقطع (**)، أى تابع، للمدينة، ولضمان المعاهدة، أخذ محمد (ﷺ) ابنة عدوه القديم حبي بن أخطب زوجة له. سعدت صفية الجميلة ذات السبعة عشر عاماً بدخول الإسلام، وأعطى محمد (ﷺ) أوامر صارمة بالألا يتناول أحد أباهما بشيء سئ، وكان أبوها مات أثناء الحصار. وأخبر محمد (ﷺ) صفية بأنه إذا سخرت إحدى زوجاته من أصلها اليهودى، تجيبها قائلة «هارون أبى وموسى عمى».

قال ابن سعد: استبت عائشة وصفية فقال رسول الله لصفية: «ألا قلت أبى هارون وعمى موسى؟» وذلك أن عائشة فخرت عليها. [الطبقات: ١٠/١٢٣] (٣٥).

مثل ذلك الزواج أسلوب التصالح والعفو الذى كان يريد محمد (ﷺ) له أن يعم، فقد حان الوقت للتخلى عن كراهية وإسالة دماء العهد الماضى.

سعد محمد (ﷺ) عند عودته بالتنام شمل عائلته وعائلات المسلمين، فقد أرسل بعد صلح الحديبية إلى المهاجرين للحبشة بالسلام الجديد بينه وبين قريش، فهاجروا

(*) لم نجد أى أثر لهذا التساؤل فى المراجع المعتمدة.

(**) استخدمت الكاتبة كلمة «Vassals» والتي تعنى أرضاً يقطعها ذو الشأن لشخص أو لمجموعة فى مقابل ولائهم وقتالهم أعداءه، وشر من إنتاجهم، وكان ذلك النظام سائداً فى أوروبا حتى العصر الحديث.

هجرتهم الثانية إلى المدينة، وهناك لقي ابن عمه جعفر بن أبي طالب بعد غياب ثلاثة عشر عاماً. ومبكراً في تلك السنة نفسها، تزوج محمد (ﷺ) من رملة - المعروفة بكنيتها: أم حبيبة - التي مات زوجها في الحبشة، وكان قد طلب من نجاشي الحبشة عقد ذلك الزواج بالوكالة عنه. كان ذلك عملاً سياسياً، ذكياً من محمد (ﷺ)، فأم حبيبة هي ابنة أبي سفيان.

مضى بقية العام في هجمات تقليدية، بعضها كان استجابة لحلفاء محمد (ﷺ) اليهود الجدد في الشمال [خيبر]. وفي عام (٧ هـ / ٦٢٩ م)، حان وقت العمرة المتفق عليها، فخرج محمد (ﷺ) ومعه ٢٦٠٠ معتمر، وعندما قاربوا الحرم، خرجت قريش من مكة طبقاً للاتفاق، وبقي كبارها يشاهدون دخول محمد (ﷺ) ومن معه مكة وهم يلبنون بأصوات عالية: لبيك اللهم لبيك، والتي ترددت أصداؤها في طرقات مكة الخالية، كما لو كانت تقريباً قاسياً لأهلها، ولا بد أن أهلها تأثروا بانضباط المسلمين، الذين لم تبدر منهم فلتات ابتهاج أو احتفال زائدة، ولا سخرية من قريش. تدفق المسلمون بعددهم الكبير في صمت ووقار، يتقدمهم محمد (ﷺ) على ناقته القصواء، وعندما وصل الكعبة نزل عنها وقبل الحجر الأسود، ثم بدأ طوافه مع المسلمين كجسد واحد. لقد كان ذلك عوداً غريباً لديارهم، وفاضت مشاعر المهاجرين بعودتهم، ولكنهم لم يتركوا لها العنان، رغم خلو مكة وكأنها مدينة أشباح.

من حول مكة، راقبت قريش - مرتاعة - العبد الأسود بلال يرتقى سطح الكعبة، ويدعو المسلمين بصوته الجهورى للصلاة، لتتردد أصداؤه وهو يؤذن: الله أكبر الله أكبر، أى إن الله أكبر من كل الأصنام التي بالكعبة، والتي لا تستطيع أن تفعل شيئاً لمنع ذلك الإذلال. لقد كان ذلك انتصاراً ظاهراً لمحمد (ﷺ)، وأصبح كثير من شباب قريش أكثر اقتناعاً بأن الديانة القديمة في احتضار.

وفي آخر ليلة لمحمد (ﷺ) في مكة، استمتع بزيارة عمه العباس - الذي كان ما زال على الديانة القديمة - وخطب له ميمونة أخت زوجته أم الفضل، والتي تاملت مؤخراً، ووافق محمد (ﷺ) آملاً في أن يغرى ذلك العباس للدخول في الإسلام، وأرسل - في نوع من المجاملة الشغوب - دعوة لقريش لحضور ذلك الزفاف، لكن جاء سهيل ليخبر محمداً (ﷺ) بأن الأيام الثلاثة المنصوص عليها في الاتفاق قد انقضت، وأن عليه مغادرة مكة ومن معه. غضب سعد بن عبادة، زعيم الخزرج من

كلمات سهيل للنبي (ﷺ)، ولكن النبي (ﷺ) أسكنه سريعاً قائلاً «لا عليك يا سعد، ولا يمكننا الإساءة لمن يأتي إلينا في معسكرنا» (٣٦).

ولدهشة قريش، خرجت جموع المسلمين من مكة تلك الليلة في نظام تام. لم تصدر احتجاجات ولا حتى محاولات لإعادة امتلاك ديارهم التي استولت عليها قريش. لقد أبدى المسلمون بانسحابهم السلمى ثقتهم في عودتهم السريعة.

انتشرت أنباء العمرة في الجزيرة العربية، وتزايد عدد البدو الذين يأتون المدينة للتحالف مع محمد (ﷺ)، بل أهم من ذلك، بدأ تيار مستمر من شباب قريش يتحول إلى الإسلام.

وعد محمد (ﷺ) في الحديبية أن يعيد لقريش التحولين الجدد إلى الإسلام اللاجئين إليه في المدينة، ولكنه استطاع أن يجد ثغرات في المعاهدة. أولاً، نصت المعاهدة على الرجال ولم تذكر النساء، ولذلك لم يعد محمد (ﷺ) أخت عثمان غير الشقيقة عندما جاءت مسلمة إلى المدينة، ولكنه أعاد إلى مكة أبا بصير، الشاب المندفع، مع مبعوثي قريش. وفي طريق العودة، قتل أبو بصير أحد المبعوثين، بينما فر الآخر إلى المدينة مذعوراً، وعندما لجأ أبو بصير إلى المدينة، سمع محمداً (ﷺ) يقول عنه «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد»، فعلم أنه سيسلمه ثانياً إلى قريش، ففر ثانياً، وأقام في مكنن حرب على ساحل البحر الأحمر يُسمى سيف البحر، قريب من طريق القوافل المكية، وهناك لحق به المسلمون الساخطون الفارون من مكة، ومن ضمنهم أبو جندل بن سهيل، فقطعوا الطريق على قوافل مكة، فكأنما عاد الحصار الاقتصادي يمسك برقبة قريش مرة أخرى. وفي النهاية، توسلت قريش لمحمد (ﷺ) بأن يسمح لأولئك الشباب باللجوء إلى المدينة، ويلتزموا بالمعاهدة. بذلك انعدمت فعالية بند إرجاع المسلمين الجدد لمكة.

وفي عام (٨ هـ / ٦٢٩م)، وصل إلى المدينة مجموعة أخرى من مسلمي مكة الجدد، بينهم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد. قال خالد: «لقد اتضحت المسألة، فالرجل بلا شك نبي».

قال ابن إسحاق: قال خالد بن الوليد: «والله استقام المنسم، وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم، فحتى متى!». [السيرة النبوية: ص ٦٦٢] (٣٧).

كان خالد خائفًا من الانتقام منه، فقد قتل هو وعمرو كثيرًا من المسلمين في أحد، ولكن طمأنهما محمد (ﷺ) بأن الإسلام يَجِبُ ما قبله، ولهما الآن بداية جديدة تمامًا.

في عام النصر السياسي ذلك، كان لمحمد (ﷺ) فرحته الخاصة. فقد أهدى له المقوقس حاكم الإسكندرية جارية مصرية مسيحية جميلة اسمها مارية. لم ترد الجارية الدخول في الإسلام، فظلت سرية لمحمد (ﷺ)، أي أمة، ولكن إذا أنجبت يصبح وليدها حرًا. أصبح محمد (ﷺ) مغرمًا بها، وطفى عليه الفرح عندما أصبحت حاملًا في نهاية عام (٦٢٩ م / ٥٧ هـ). وسمى محمد (ﷺ) الوليد إبراهيم، وكان يحب أن يحمله في طرقات المدينة، ويريد من المارة أن يروا جماله وشبهه به. ولكن جاء الحزن مع الفرح. فقد ماتت زينب بنت محمد (ﷺ) الكبرى بعد أداء العمرة بوقت قصير، ثم خسر اثنين من أحبائه من عائلته في معركة مؤتة على حدود الشام: جعفرًا وزيدًا. نحن نعرف القليل عن تلك الحملة سيئة المصير. ربما أراد محمد (ﷺ) أن يضم القبائل العربية المسيحية كحلفاء للأمة الإسلامية كما فعل مع يهود خيبر (*)، فبعث في عام ٨ هـ جيشًا من ثلاثة آلاف رجل، وهاجمتهم كتيبة من الجيش البيزنطي (**). في قرية مؤتة القريبة من البحر الميت. تولى قيادة الجيش زيد بن حارثة حتى قتل، ثم أخذها جعفر بن أبي طالب حتى قتل، وتلاهما عبد الله بن رواحة، حتى قتل أيضًا، وفي النهاية أخذها خالد بن الوليد، والذي ناور للعودة بالجيش إلى المدينة.

وعندما علم محمد (ﷺ) بالخبر، ذهب فورًا إلى بيت جعفر مذهولاً من أنه أرسل ابن عمه الحبيب لمقتله. كانت أسماء زوجة جعفر تخبز، وما إن رأت تعبيرات وجه محمد (ﷺ) الحزين حتى أدركت حدوث أمر جليل. سألتها محمد (ﷺ) أن يرى ابنها، فركع على ركبتيه واحتضنهما وهو يبكي. فور ذلك بدأت أسماء تنوح زوجها على الطريقة العربية، وأسرعت النساء لمواساتها، وطلب محمد (ﷺ) منهن

(*) كما جاء سابقًا، كانت غسان تعد العدة ومعها قوات الإمبراطورية البيزنطية لغزو المدينة.

(**) جاء في سيرة ابن إسحاق أن عدد قوات البيزنطيين ومن حالفهم من قبائل الشمال مائة ألف مقاتل.

أن يحضرن لها طعاماً يكفيها للأيام القليلة التالية . ولما خرج محمد (ﷺ) عائداً في طرقات المدينة ، جرت إليه ابنة زيد وألقت بنفسها بين ذراعيه ، فاحتضنها وهو يبكي في الطريق .

أساءت هزيمة مؤتة لوضع محمد (ﷺ) في المدينة ، وعندما عاد الجيش ، استقبله أهلها بصيحات الاستهجان والازدراء ، واضطر محمد (ﷺ) لفرض حمايته الشخصية على خالد . ولكن في (جمادى الأولى ٨ هـ / نوفمبر ٦٢٩ م) ، تغير الموقف في بلاد العرب بشكل هائل ، فقد نقضت قريش المعاهدة بمساعدتها لحليفها بنى بكر في الهجوم على خزاعة حليفة المسلمين . طلبت خزاعة من محمد (ﷺ) النصر على قريش ، والتي أدركت أنها أعطت محمداً (ﷺ) الحجة لغزومكة .

ظل صفوان وعكرمة على تحديهما للمسلمين ، ولكن بدأ سهيل يراجع نفسه ، أما أبو سفيان ، فقد ذهب أبعد من ذلك ، ذهب إلى محمد (ﷺ) في المدينة في مبادرة سلام . لم تكن لأبى سفيان في ذلك الوقت رغبة في الدخول في الإسلام ، ولكنه أدرك منذ فترة أن المد أصبح في صالح محمد (ﷺ) ، وأن على قريش أن تفاوض لتحصل على أفضل اتفاقية ممكنة معه .

في المدينة ، زار أبو سفيان ابنته أم حبيبة ، وقابل أصحاب محمد (ﷺ) ، محاولاً إبعاد نفسه عن المواجهة المرتقبة بين المسلمين وأهل مكة . وعندما عاد إلى مكة ، حاول تهيئة الناس لقبول الأمر المحتوم . وبعد رحيله عن المدينة ، بدأ محمد (ﷺ) في التخطيط لحملة جديدة .

وفي (رمضان ٨ هـ / يناير ٦٣٠ م) ، خرج محمد (ﷺ) من المدينة على رأس أكبر جيش في تاريخ المسلمين ، تطوع فيه تقريباً كل رجال المسلمين ، وانضم إليهم في الطريق حلفاؤهم من البدو ، حتى بلغ عدد المقاتلين عشرة آلاف . لم يفصح محمد (ﷺ) عن وجهته ، ولكن بالطبع هناك من استطاع الإصابة في تخمين المقصد . كانت مكة هدفاً محتملاً ، ولكن كانت الطائف أيضاً ، والتي ما زالت معادية للمسلمين ، ولذلك بدأت هوازن في جمع جيش هائل .

وفى مكة، خشى كبارها من غزوة استئصال لهم عندما علموا باقتراب جيش المسلمين. سارع كل من العباس وأبى سفيان وبديل، رئيس خزاعة، بالذهاب إلى معسكر المسلمين القريب من مكة تحت جناح الظلام، ليقابلوا محمداً (ﷺ). قابلهم محمد (ﷺ) وسأل أبا سفيان إن كان مستعداً للدخول فى الإسلام، فأجابته بأنه أصبح لا يعتقد فى الأوثان، ولكن لا يعتقد بعد فى نبوته! ولكن ذهل أبو سفيان من مرأى أعداد المسلمين فى صلاة الفجر، ثم تحركهم بعد ذلك صوب مكة. أسرع أبو سفيان عائداً إلى مكة، وهناك جمع الناس قائلاً فيهم:

– يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

– فقامت زوجته هند بنت عتبة صارخة فى وجهه وأخذت بشاربه:

– اقتلوا الحميت [وعاء السمن] الدسم الأحمس الساقين، قبح من طليعة قوم!

– فرد أبو سفيان:

– ويلكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به.

وصف أبو سفيان ما رآه فى معسكر المسلمين، وأدرك أن زمن التحدى قد ولى، وأثر تجهمه وجديته على معظم قريش، فتصرفت بمنتهى العملية، ولزمت بيوتها كعلامة على الاستسلام.

أرادت قلة من قريش القتال، فجمع عكرمة وصفوان وسهيل قوة صغيرة حاولت الهجوم على جناح خالد بن الوليد من الجيش الفاتح، ولكن سرعان ما انهزموا، وفر كل من صفوان وعكرمة خوفاً على حياتهما، أما سهيل، فقد ألقى سلاحه ودخل بيته. دخل بقية الجيش الإسلامى مكة دون مقاومة، ونصب محمد (ﷺ) خيمته الحمراء قريباً من الكعبة، واجتمعت فيها أم سلمة وميمونة اللتان اصطحبتاه، وعلى وفاطمة. وبعد قليل جاءت أم هانئ أخت على تطلب العفو عن اثنين من أنسبائها اللذين اشتركا فى القتال. وبرغم أن كلا من على وفاطمة أراد قتلهما، فقد أعطاها محمد (ﷺ) الأمان فوراً قائلاً: «لقد أجرنا من أجرت».

لم يجبر محمد (ﷺ) أحداً على اعتناق الإسلام، ولم يجعل أى أحد يحس بأى ضغط ليدخل الإسلام، فما زال الصلح هو هدفه .

نام محمد (ﷺ) قليلاً، ثم نهض لصلاة الفجر، ثم ركب ناقته القصواء ليطوف بالكعبة مكبراً، ومن معه من المسلمين، وترددت أصداؤهم فى مكة معلنة الانتصار النهائى للإسلام .

ثم أسقط أصنام الكعبة بدفعها بقوسه، وهو يردد:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١)

[سور الإسراء: (٨١)] (٣٨) .

وداخل الكعبة، كانت صور الآلهة على جدرانها، فأمر بمحوها، ويقال إنه سمح ببقاء صورتى المسيح وأمه مريم (عليهما السلام) (*).

عند ذلك، كان بعض القرشيين قد خرجوا من بيوتهم وجاءوا يرون ماذا يفعل محمد (ﷺ)، فخطبهم داعياً:

قال ابن إسحاق: إن رسول الله (ﷺ) قام على باب الكعبة فقال: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب». [السيرة النبوية: ص ٧٤٤] (٣٩) .

ثم تلا عليهم كلمات الله للبشرية جمعاء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣) [الحجرات: ١٣] (٤٠) .

— ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل بكم؟

— قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم .

— قال: فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته ﴿لَا تَرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، اذهبوا فأنتم الطلقاء .

(*) لم نجد لهذا القول أثراً فى المراجع العربية .

لم يعد الكريم الحقيقى هو المغالى فى حب القبيلة لدرجة العدوانية على الآخرين ، ولكنه ذلك الذى يملأ قلبه بتقوى الله ومخافته . لم يعد غرض القبيلة أو الأمة أن تستعلى على الآخرين ، وليس عليها أن تسعى للتسيّد على الآخر أو استغلاله أو غزوه أو تدميره ، أو حتى إجباره على أن يصير نسخة من أعضائها ، بل عليها أن تتعرف على ذلك الآخر ، بما يعنى تفهم اختلافه . يجب أن تؤدى تجربة الحياة فى مجموعة - لا مفر من الاختلاف بين أفرادها - إلى أن يتقبل رجل القبيلة ، أو المواطن بصفة عامة ، معايشة الآخر . يجب أن تقود إلى تفهم وحدة الجنس البشرى . استطاع محمد (ﷺ) أن يغير تعريف النبل فى بلاد العرب ، بأن جعله أكثر عالمية ، وعاطفة ، ونزع منه الأنانية .

ولكن هل كانت قريش مستعدة لذلك؟ أصدر محمد (ﷺ) عفواً عاماً ، فقط وضع حوالى عشرة أشخاص فى القائمة السوداء ، التى شملت عكرمة (ورفع منها صفوان لأسباب معينة) ، وأولئك الذين أثاروا الدعاية وألبوا ضد المسلمين ، أو اعتدوا على زينب بنت النبى (ﷺ) . سأل بعض أولئك الأوغاد العفو ، ويبدو أنهم حصلوا عليه .

ذهب محمد (ﷺ) إلى الصفا بعد خطبته فى الكعبة ، ودعا الناس للبيعة ، فجاءته قريش فرداً فرداً ، وهو جالس بين عمر وأبى بكر . وجاءت [متنقبة] من ضمن النساء هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان ، التى كانت فى القائمة السوداء لتمثيلها بجثة حمزة بعد معركة أحد ، وقالت فى نغمة أشبه بالتحدى من الاعتذار :

- اعف عما سلف يا نبى الله ، عفا الله عنك .

- سألهما محمد (ﷺ) كما سأل بقية النساء :

- لا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ولا تزنين .

- أو تزنى الحرة؟

- ولا يقتلن أولادهن .

- ريبناهن صغاراً وقتلتموهن كباراً [يوم بدر] .

فعرفها النبى (ﷺ) .

قال الطبرى: ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله (ﷺ) على الإسلام، فجلس لهم - فيما بلغنى - على الصفا وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس. فبايع رسول الله (ﷺ) على السمع والطاعة لله ولرسوله - فيما استطاعوا - وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله (ﷺ) من الناس على الإسلام. فلما فرغ رسول الله (ﷺ) من بيعة الرجال بايع النساء، واجتمع إليه نساء من نساء قريش، فيهن هند بنت عتبة، متتعبة متكررة لحدثها وما كان من صنعها بحمزة، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله (ﷺ) بحدثها ذلك، فلما دنون منه لبياعته، قال: رسول الله (ﷺ) فيما بلغنى: «تبايعنى على ألا تشركن بالله شيئاً»، فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمراً ماتأخذه على الرجال وسنؤتيكه، قال: «ولاتسرقن»، قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة، وما أدرى أكان ذلك حلال أم لا؟ فقال أبو سفيان - وكان شاهداً لما تقول: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل، فقال رسول الله (ﷺ): «وإنك لهند بنت عتبة» فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك! قال: «ولا تزنين»، قالت: يا رسول الله، هل تزنى الحرة! قال: «ولاتقتلن أولادكن»، قالت: قد ربيناهم صغاراً، وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم! فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب. [تاريخ الطبرى: ٦٢/٣، ٦٣] (٤١).

لقد أسلمت هند وحقنت دمائها رغم ما فعلت، وأطلقها النبى (ﷺ) حرة، بل عملت هند بعد ذلك على أن يحوز زوجها وأولادها تكليفات هامة فى الأمة الإسلامية.

توسل أقرباء صفوان وعكرمة لإنقاذ حياتهما، ووعد محمد (ﷺ) بأنهما إذا قبلا قيادته، فيمكنهما الرجوع إلى مكة فى حرية. قبل الاثنان، ورجعا، وسبق عكرمة بالدخول فى الإسلام، وحياه محمد (ﷺ) بحنان، ومنع المسلمين من ذكر أبيه (أبى جهل) بأى سوء. وأعطى صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو بيعتهما لطاعة محمد (ﷺ)، ولكن لم يستطيعا الاعتراف به كنبى، ولكن لم تمر إلا أيام قليلة حتى نطقا بالشهادة.

بعد أن قام محمد (ﷺ) بتأمين مكة، كان عليه أن يتعامل مع هوازن وثقيف، اللتين جمعتا جيشًا من عشرين ألف رجل في الطائف القريبة من مكة. استطاع محمد (ﷺ) أن يهزمهما في موقعة حنين في نهاية شوال ٨هـ / يناير ٦٣٠م، ثم حالت هوازن محمداً (ﷺ). لم يستطع المسلمون الاستيلاء على الطائف، ولكن أصبحت المدينة معزولة تمامًا بفقدانها حليفها الرئيسي، قبيلة هوازن، مما جعلها تستسلم من نفسها بعد عام واحد.

عندما قسم محمد (ﷺ) غنائم انتصاره في حنين، أعطى أبا سفيان، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، نصيب الأسد. جاشت عواطف صفوان حتى استسلم على الفور قائلاً: أشهد أنه لا يعطى مثل هذا العطاء إلا نبي، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. (٤٢). وتلاه سهيل بالقول نفسه.

انزعج بعض الأنصار من تفضيل محمد (ﷺ) لقريش عليهم. هل يتخلى عنهم محمد (ﷺ) الآن بعد إسلام قومه؟

طمأن محمد (ﷺ) الأنصار بخطبة حركت مشاعرهم حتى بكى أكثرهم، فهو لن ينسى أنه أتاهاهم مكذباً فصدقوه، ومخذولاً فنصروه، وطريداً فأووه، وعائلاً فأسوه:

قال ابن إسحاق: أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار. [السيرة النبوية: ص ٨٠٣] (٤٣).

لقد كان انتصاراً غريباً، وقد يتعجب أي مراقب محايد متسائلاً: لماذا تقاتل المسلمون وقريش من بادئ الأمر؟ (٤٤).

حفظ محمد (ﷺ) وعده، وعاد إلى المدينة مع المهاجرين والأنصار، لم يحاول أن يحكم مكة بنفسه، ولا أن يستبدل أصحابه بزعمائها، ولم يؤسس فيها نظاماً إسلامياً خالصاً. احتفظ كبراء مكة السابقون بأوضاعهم في الحرم، كذلك استمر

مجلس تشاورها، والحالة كما كانت عليها. لم يعد تثبيت أعدى أعدائه فقط، بل رفع من أوضاعهم وأمطرهم بالهدايا.

عندما كان محمد (ﷺ) بصدد توزيع أمجد وظائف الحج، وهى السقاية والحجاجة [طلب العباس - وفى رواية على - أن يجمع لبنى هاشم الحجاجة مع السقاية] قال محمد (ﷺ) لمن كانت بيده الحجاجة :

قال الواقدي : ثم نزل رسول الله (ﷺ) ومعه المفتاح، فتنحى ناحية المسجد فجلس، وكان رسول الله (ﷺ) قد قبض السقاية من العباس وقبض المفتاح من عثمان، فلما جلس قال : ادعوا إلى عثمان! فدعى له عثمان بن أبى طلحة، وكان رسول الله (ﷺ) قال لعثمان يوماً، وهو يدعو إلى الإسلام، ومع عثمان المفتاح، فقال : لعلك سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت! فقال عثمان : لقد هلكت إذا قرئش وذلت . فقال رسول الله (ﷺ) : بل عمرت وعزت يومئذ . فلما دعانى بعد أخذه المفتاح ذكرت قوله ما كان قال، فأقبلت فاستقبلته ببشر واستقبلنى ببشر، ثم قال : خذوها يا بنى أبى طلحة تالدة، لا ينزعها إلا ظالم . [مغازى الواقدي : ٢ / ٨٣٧، ٨٣٨] (٤٥).

تقريباً، تم إنجاز عمل محمد (ﷺ)، وبعد عودته إلى المدينة، استمر معسكر ابن أبى فى المعارضة، وتكررت محاولة اغتيال محمد (ﷺ)، الذى حاول ردع أعدائه بإرسال حملات مرعبة أكثر للشمال . وفى ٩هـ / أكتوبر ٦٣١م، أدرك أنه أصبح بالمدينة مسجد ضرار، فأمر بتدميره، وفى الصباح التالى، أجرى تحقيقاً عن أفعال من أراد اغتياله، فأسرعوا بالاعتذار له، حيث أظهر معظمهم أعداراً مقبولة وتم العفو عنهم، برغم أن الأمة قاطعتهم لما يقرب من شهرين، ويبدو أن ذلك أنهى المعارضة المسلمة [معارضة المنافقين]. وتوفى ابن أبى بعد ذلك بقليل، ووقف محمد (ﷺ) على قبر عدوه القديم فى لفظة احترام.

لقد نجح أخيراً فى إقامة مجتمع حيوى متحد فى المدينة، وأصبح عدد البدو الذين يقبلون بسيادته السياسية يتزايد، برغم أنهم لم يعتنقوا الإسلام. فى عشر سنوات فقط من الهجرة، غير محمد (ﷺ) الخريطة السياسية والروحية فى بلاد العرب، إلى غير رجعة.

ولكنه أصبح في ضعف جسدى متزايد، ومع بداية عام (١٠هـ / ٦٣٢م)، تزايد إحساسه بدنو أجله. ولقد أكربه موت صغيره إبراهيم، وبكى عليه بمرارة، رغم تيقنه بأنه سيلحق به سريعاً فى الفردوس. وعندما اقترب الحج، أعلن أنه سيقود الحجاج، وأخذ معه زوجته كلهن، وعدداً هائلاً من الحجاج، ليصلوا مكة فى (٢٥ ذى القعدة ١٠هـ / أوائل مارس ٦٣٢م)، وقاد المسلمين فى أداء طقوس الحج المحببة لقلوب العرب، معطياً إياها أهمية جديدة. فبدلاً من تجمع كل قبيلة حول إلهها، تجمع المسلمون حول الكعبة التى بناها جدهم إبراهيم وإسماعيل (عليهما الصلاة والسلام)، وعندما سعوا بين الصفا والمروة، كانوا يقلدون سعى هاجر المحموم بحثاً عن الماء لوليدها إسماعيل (عليه السلام) بعد أن تركهما إبراهيم (عليه السلام) فى الصحراء، وأنقذهما الله بنبع المياه من أعماق الأرض فى زمزم. بعد ذلك، يقف الحجاج فى عرفة، حيث يقال إن الله عهد ميثاقاً مع آدم أبى البشر، ليتوحد الحجاج مع بقية البشر أبناء آدم، ثم يرمى الحجاج الجمرات الثلاث فى منى، تذكيراً لهم بجهادهم المستمر ضد إغراءات الحياة الدنيا. وأخيراً، يضحي الحاج بكبش، تقليداً لتضحية إبراهيم (عليه السلام)، بعد أن فدى الله ابنه به.

يقع مسجد نمره قريباً من جبل عرفة، فى الموقع الذى ألقى فيه محمد (صلى الله عليه وسلم) خطبة الوداع. ذكرهم بأن يقيموا العدل بينهم، ويحسنوا معاملة النساء، ويتخلوا عن عداوات وحمية الجاهلية. يجب ألا يقاتل المسلمون بعضهم البعض فهم إخوة، ولا يغتصب بعضهم حق البعض. عرف محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه برغم تكراره التذكير، لم يستوعب كل المسلمين رؤيته. هل ذهب مجهوده هباء؟ سأل محمد (صلى الله عليه وسلم) المسلمين بصوت عال: ألا هل بلغت؟

فأجابة المسلمون بإجماع هادر: اللهم نعم.

وكرر سؤاله، وكرروا الإجابة بصوت راعد: اللهم نعم، فرفع سبابته إلى السماء قائلاً: اللهم فاشهد:

قال ابن إسحاق: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى خطبة الوداع: «أيها الناس، اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن

أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كيله، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً فى بنى ليث فقتله هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدأ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تمحرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، أيها الناس: إن النسيء زيادة فى الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلون عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر، الذى بين جمادى وشعبان. أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نساءكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت، وقد تركت فىكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدأ، أمراً بينا، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولى واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟ قالوا: اللهم نعم؛ فقال رسول الله (ﷺ): اللهم أشهد. [السيرة النبوية: ص ٨٦٨] (٤٦).

عاد محمد (ﷺ) بعد حجة الوداع إلى المدينة، وبدأ الصداق والإغماء يعاودانه ويقعدانه عن نشاطه السابق، ولكن لم يخلد تماماً لفراشه. كان عادة ما يشد على رأسه قطعة قماش لتخفف الصداق، ويذهب للمسجد ليؤم المصلين، ويخاطب الناس. وفى

أحد الأيام، صلى على شهداء أحد، ثم قال: «إن الله خير عبده بين الدنيا والآخرة فاختر الآخرة». يبدو أن الوحيد الذي فهم مغزى ذلك كان أبا بكر، فبكى، وطيب محمد (ﷺ) خاطره برقة قائلاً «هون عليك يا أبا بكر»:

قال ابن إسحاق: حدثني أيوب بن بشير أن رسول الله ﷺ خرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، فأكثر الصلاة عليهم ثم قال: «إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختر ما عند الله». قال: ففهمها أبو بكر، وعرف أن نفسه يريد، فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا. فقال: «على رسلك يا أبا بكر». [السيرة النبوية: ص ٨٩٤] (٤٧).

انهارت صحة محمد (ﷺ) في النهاية، وكان في حجرة ميمونة، فتجمعت عليه زوجاته في حب، ولاحظن أنه يداوم السؤال «أين أنا غدأ؟» ففهمن أنه يتطلع ليوم عائشة، فاتفقن على أن يبقى هناك. رقد محمد (ﷺ) ساكناً عند عائشة، وظن الناس أن به وعكة طارئة، ورغم أن أبا بكر كرر عليهم أن النبي (ﷺ) لم يعد ليعيش في هذا العالم، فقد أنكروا ذلك. وعندما اشتد عليه المرض حتى لم يعد قادراً على الذهاب للمسجد، سأل أبا بكر أن يصلى بالناس، وكان في بعض الأحيان يستطيع الخروج ليصلى جالساً بجوار أبي بكر، ولكن دون أن تكون لديه قوة الجهر بقراءته.

وفي (١٢ ربيع ١١هـ / ٨ يونيه ٦٣٢م)، أحس أبو بكر في الصلاة أن الناس خلفه منفعلين، وأدرك على الفور دخول محمد (ﷺ) المسجد. كان يبدو أفضل، بل قال البعض إنهم لم يروه من قبل في مثل هذا البهائم والجمال والنورانية، حتى سرت موجة من الفرح والطمأنينة في المسلمين. أراد أبو بكر على الفور أن يترك الإمامة لمحمد (ﷺ)، ولكن ربت محمد (ﷺ) على كتفيه برقة ليبقى مكانه، وصلى بجواره جالساً. عاد محمد (ﷺ) بعد الصلاة لحجرة عائشة، وبدا أن حالته تحسنت حتى أن أبا بكر استأذنه في الرجوع إلى زوجته في الجهة الأخرى من المدينة (السنح). وأذاع على والعباس النبأ الطيب بأن النبي (ﷺ) قد برئ من مرضه، ولكن في المساء، أحست عائشة بجسده يثقل عليها، وأنه يفقد الوعي، ولكنها لم تدرك ماذا كان يحدث، حتى أنها قالت فيما بعد: «لقد كان يحتضر ولم أكن أعلم»، وسمعته يتمتم بكلمات «الرفيق الأعلى»، فقد جاء ملك الموت ليأخذ روحه لبارئها. نظرت إليه

عائشة، فوجدته قد رحل، فوضعت رأسه برفق على الوسادة، وبدأت في العويل واللطم على وجهها بالطريقة التقليدية :

قال ابن إسحاق : قالت عائشة رجع إلى رسول الله في ذلك اليوم حين دخل من المسجد، فاضطجع في حجرى، فدخل على رجل من آل أبى بكر، وفى يده سواك أخضر. قالت : فنظر رسول الله (ﷺ) إليه فى يده نظراً عرفته أنه يريد، قالت : فقلت : يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال : «نعم» قالت : فأخذته فمضغته له حتى لينته، ثم أعطيته إياه، قالت : فاستن به كأشد ما رأيت، يستن بسواك قط، ثم وضعه، ووجدت رسول الله (ﷺ) يثقل فى حجرى، فذهبت أنظر فى وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول : «بل الرفيق الأعلى فى الجنة»، قالت : فقلت : خيرت فاخترت، والذى بعثك بالحق. قالت : وقبض رسول الله (ﷺ). [السيرة النبوية : ص ٨٩٧] (٤٨).

عندما سمع الناس ندب عائشة، أسرعوا منقبضين إلى المسجد وحجرة عائشة، وذاع الخبر سريعاً حتى هرع أبو بكر عائداً، فنظر إلى وجه محمد (ﷺ) وقبلة، ثم بكى وقال : ما أطيبك حياً وميتاً، بأبى أنت وأمى، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموته التى كتبت عليك فقد متها.

وفى المسجد، وجد أبو بكر عمر يخاطب الناس بانفعال وعصبية زائدين، مؤكداً أن محمداً (ﷺ) لم يموت، وإنما فارقت روحه جسده مؤقتاً وستعود، وأنه سيكون آخرهم موتاً، فقال له أبو بكر : على رسلك يا عمر! ولكن عمر استمر فى انفعاله، فتقدمه أبو بكر فى رباطة جأش وهدوء ليخاطب الناس، الذين تجمعوا حوله.

ذكر أبو بكر المسلمين أن محمداً (ﷺ) قضى عمره فى نشر التوحيد وتعليمه للناس، فكيف يتخيلون أنه خالد فى الحياة الدنيا؟ فهذا يساوى القول بأنه إله آخر. لقد داوم محمد (ﷺ) على تحذير المسلمين من تقديسه كما قدس المسيحيون عيسى (ﷺ). لم يكن محمد (ﷺ) إلا بشراً مثلهم.

إن رفض قبول وفاة محمد (ﷺ) يضاهى رفض قبول رسالته، ولكن طالما عبد المسلمون الله بإخلاص، فسيذكرون محمداً (ﷺ) فى عقولهم، وقال : من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حى لا يموت. ثم تلا عليهم

الآيات التي أنزلت بعد أحد حينما صدمت الإشاعة الكاذبة بموت محمد (ﷺ) كثيراً من المسلمين:

قال ابن إسحاق: «قام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله (ﷺ) قد توفى، وإن رسول الله (ﷺ) مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات، ووالله ليرجعن رسول الله (ﷺ) كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله (ﷺ) مات.»

قال: وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر، وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله (ﷺ) في بيت عائشة، ورسول الله (ﷺ) مسجى في ناحية البيت، عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله (ﷺ). قال: ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً. قال: ثم رد البرد على وجه رسول الله (ﷺ)، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: على رسلك يا عمر، أنصت، فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٤٤]، [السيرة النبوية: ص ٨٩٧، ٨٩٨] (٥٠×٤٩).

صدم كلام أبي بكر المسلمين، بما فيهم عمر:

قال ابن إسحاق: قال عمر: فوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، قال: أخذها الناس عن أبي بكر، فلما هي في أفواههم، قال: وقال: أبو هريرة: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله (ﷺ) قد مات. [السيرة النبوية: ص ٨٩٨] (٥١).

كان محمد (ﷺ) مشيراً للجدل في موته كما كان مشيراً للجدل في حياته. عدد قليل جداً من أتباعه استوعبوا نبوته استيعاباً كاملاً. فقد ظهر التصدع في الأمة في الحديبية، عندما توقع أكثر المعتمرين معجزة من نوع ما تجعلهم يتمون عمرتهم. ودخل الناس الإسلام لأسباب مختلفة، كثير منهم سعوا وراء العدالة الاجتماعية، ولكن لم يسع الكثير وراء مثاليات اجتناب العنف، والمصالحة. كان للثوار الذين اتبعوا أبا بصير في قطع الطريق على قوافل مكة، أهداف مختلفة عن أهداف محمد (ﷺ)، وكان لرجال القبائل البدو الذين رفضوا الاعتمار مع محمد (ﷺ) دوافع سياسية أكثر منها دينية للالتزام بالإسلام. لم يكن الإسلام، من البداية، وحدة واحدة.

ليس هناك ما يدعو للاندهاش من ذلك النقص في الوحدة. ففي الأناجيل، يظهر حواريو المسيح بلداء وغير مبصرين للمعنى العميق لمهمته.

الشخصيات النموذجية عادة ما تسبق عصرها ومعاصريها، فيتخلفوا عن فهمها. أما بعد موتها، فيتفرق أتباعها، كما انقسم البوذيون بعد وفاة بوذا إلى مدرستين. كذلك حدث في الإسلام، والصدع الذي أصاب الأمة في حياة محمد (ﷺ)، أصبح أكبر بعد وفاته. اعتقد كثير من البدو الذين لم يستوعبوا تماماً رسالة القرآن، اعتقدوا أن الإسلام انتهى بموت محمد (ﷺ)، شعروا أنهم أحرار في الانسحاب من الأمة الإسلامية، بالطريقة نفسها التي ينسلخون بها من أى معاهدة بعد موت زعيم القبيلة.

بعد موت النبي (ﷺ)، انتخب المسلمون أربعة خلفاء: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً، وسماهم الناس «الخلفاء الراشدين». وشن الخلفاء حروب غزو خارج الجزيرة العربية، ولكن لم يكن لها فحوى دينية، وقد سلك الخلفاء الراشدون في ذلك سبل رجال الدولة، فاستجابوا للفرصة السياسية التي أتاحتها تفكك الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، أكثر من أن يكونوا اتبعوا في تلك الفتوحات أوامر قرآنية.

أعطيت لاحقاً الحروب الأهلية التي أسفرت عن اغتيال عمر وعثمان وعلي والحسين صبغة دينية، برغم أنها كانت في المقام الأول نتائج جانبية للتحول السريع والخطار للعادة لبلاد العرب من الحالة الهامشية إلى حالة القوة العظمى الرئيسية في عالم ذلك الزمان.

كانت استجابة المسلمين لذلك أكثر إدهاشاً من الاضطرابات السياسية نفسها . لقد نضج فهمهم للقرآن عندما درسوا تلك الأحداث المأساوية . كمنت جذور تطور كل دين - وينطبق ذلك حرفياً على الإسلام - في رغبته في العودة إلى الرؤية الأصلية لنبيه . انزعج الكثير من المسلمين من حياة الترف التي عاشها الخلفاء المتأخرون ، وحاولوا العودة إلى الرؤية الصارمة الأولى للأمة . أثار المتصوفون وعلماء الكلام والمؤرخون والفقهاء أسئلة مهمة . كيف يمكن لمجتمع قتل قادته المخلصين أن يزعم أنه يسير في هدى الله؟ أى نوع من الرجال عليه أن يقود الأمة؟ هل يمكن للحكام الذين يتعمون بمثل تلك الحياة المسرفة - بينما يغضون النظر عن فقر معظم أفراد الأمة - هل يمكن أن يكونوا مسلمين حقاً؟ .

لعبت تلك المجادلات حول القيادة السياسية للأمة الإسلامية دوراً في الإسلام مشابهاً للمجادلات اللاهوتية عن طبيعة المسيح التي مرت بها المسيحية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . وقد أسهمت روح الزهد الصوفي في ذلك السخط العام على بذخ الحكام ، وأدار الصوفيون ظهورهم للبلاط وحاولوا العيش في خشونة مثلما عاش النبي (ﷺ) ، وطوروا نموذجاً صوفياً من رحلة المعراج . واعتقد الشيعة بوجوب تولى على وأبنائه من بعده الخلافة ، فهم وحدهم ورثوا النعمة الإلهية في النبي . طور الشيعة مذهباً معارضاً للظلم الاجتماعي ، وحاولوا العودة إلى روح المساواة القرآنية . وعندما نظرت تلك الحركات وغيرها إلى شخصية محمد (ﷺ) العملاقة ، نحت بالرؤية القرآنية في اتجاهات جديدة تماماً ، وأظهرت أن الوحي الأصلي يتمتع بالمرونة اللازمة لأي حركة عالمية للاستجابة للظروف والأحوال المستجدة .

منذ البداية الأولى ، اعتبر المسلمون نبيهم مرجعاً في تقييم ساستهم ، وروحانية الأمة . يحتاج زماننا إلى روح نقدية . يعتبر بعض المفكرين المسلمين أن ذروة مهمة محمد (ﷺ) هي جهاده ضد مكة ، ويقصرون عن رؤية شجبه لأعمال الحرب ، وتبنيه لسياسة اللاعنف .

كذلك يصر النقاد الغربيون على رؤية محمد (ﷺ) كرجل حرب ، ويقصرون عن رؤية معارضته ، منذ البداية ، لروح التكبر والأنانية الجاهلية ، التي أسفرت عن العدوان على الآخرين ، ليس فقط في عصره ، ولكنها ما زالت متقمصة بعض قادة الغرب ،

وقادة المسلمين على حد سواء. الآن يتحول النبي (ﷺ) - الذي كان هدفه السلام والتراحم - إلى رمز للفرقة والنزاع، في تطور ليس فقط مأساويًا، ولكنه أيضًا خطير على الاستقرار الذي يعتمد عليه مستقبل البشر.

في نهاية محاولتي الأولى لكتابة سيرة محمد (ﷺ) نقلت كلمات المعانى التي أبصرها العالم الكندي ويلفريد كانتويل سميث، حين كتب في منتصف القرن العشرين قبيل أزمة قناة السويس^(*)، ملاحظًا أن التطبيق الصحي للإسلام، ساعد المسلمين لعدة قرون على التمتع بقيم جديدة بالاحترام، بالمشاركة مع الغرب؛ لأن تلك القيم تنبع من تقاليد مشتركة.

لدى بعض المسلمين مشاكل مع الحداثة الغربية، فانقلبوا ضد ثقافات أهل الكتاب، بل وبدعوا في أسلمة كراهيتهم الجديدة للمعتقدات الدينية الشقية، برغم أن القرآن قد صدق عليها بقوة. وحاجج كانتويل سميث بأنه إذا أراد المسلمون مقابلة تحديات العصر، فعليهم أن يتعلموا أن يفهموا تقاليدنا ومؤسساتنا الغربية؛ لأنها لن تختفى، وإذا لم تقم المجتمعات الإسلامية بذلك، فسترسب في اختبار القرن العشرين. ولكنه أشار أيضًا إلى أن الغرب لديه مشكلة «عدم قدرته على إدراك أن يتشارك الكوكب مع آخرين، ليسوا أقل، ولكن مساوين».

ما لم تتعلم الحضارة الغربية، ثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا، وتتعلم الكنيسة المسيحية، لاهوتيًا، أن تعامل الآخرين باحترام، بشكل رئيسي، فسيفشل كلٌّ منهما في التوافق مع القرن العشرين. ومشاكل ذلك [في المسيحية] عويصة بقدر ما لمسناه في الإسلام^(٥٢).

أظهر التاريخ القصير للقرن الواحد والعشرين أن كلا الجانبين لم يتقن الدرس، وإذا تعين علينا اجتناب الكارثة، فعلى المسلمين وعلى العالم الغربي أن يتعلموا، ليس فقط التسامح مع الآخر، بل تقديره. ونقطة انطلاق طيبة هي شخصية محمد (ﷺ): رجل مركب، يعصى على التصنيف الأيديولوجي، أتى أحيانًا ببعض الأعمال التي يصعب أو يستحيل علينا قبولها، ولكنه ذو عبقرية أصيلة، وأسس دينًا، وتقاليد ثقافية، ليس على السيف، ولكن على السلام، كما يعنى اسم الدين، وعلى التصالح.

(*) العدوان الثلاثي: الإنجليزي والفرنسي والإسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦ م.